أسوار المدينة ..

أسطورة رمزية بقلم عبد الغفار مكاوي

أنا رجل ضائع في المدينة .

شهادة ميلادي تؤكد أنني موجود . وأنني واحد من بين آلاف عديدة تزدحم بهم الطرقات. ثيابي رثة. طعامي قليل . شعر رأسي أشعث . وحذائي متمزق من قديم .

أما مدينتنا فهي مدينة عظيمة ، واسعة الأرجاء . يحدها من الشمال جبل هائل مرتفع . ومن الشرق صحراء ممتدة إلى غير نهاية . ويجري في وسطها نهر لطيف محبوب ، بين صفين من أشجار النخيل. وما أكثر ما تراءت مدينتنا لعيني تنيناً ضخماً ، ينفث الدخان من فمه ، وعلى رأسه تطوف سحابات شتاء قاتمة . ربما يرجع هذا إلى أن عيني يأكلها الرمد من زمن بعيد ، فلا تميزان الرؤى والمشاهد . كل ما أستطيع أن اؤكده أنني كلما سرت في شوارع مدينتنا استطالت أمامي أجسام الناس ، وتضخمت أبعادها ، واختلطت علي حدودها ، فلا أكاد أعرف إن كانوا بشراً ، وتكاد عيناي تدمعان .

مدينتنا مدينة عظيمة كما أسلفت. أعظم ما فيها هذا السور الهائل المنيع الذي لا يذكر إسمها إلا مقترناً به . يحدها من الشمال ومن الجنوب ، من الشرق والغرب . تاريخ مدينتنا مذكور في الكتب ، مدون في الأسفار الكبيرة ، محفور في الآثار والصخور ، وفي رؤوس حكمائنا الشيوخ . لئن نسينا أن مدينتنا قد زحمتها جيوش أعداء كثيرين ، على مر الدهور ، فلنا العذر في ذلك، فذاكرة أمثالي من رجال أمتنا ضعيفة . وكيف تعلق بأذهاننا تفاصيل لاحصر لهـا ؟ .

كان من أعدائنا من يلبسون العمائم الكبيرة البيضاء ، ويحملون السيوف في أيديهم . ويقاتلون أجدادنا كالوحوش ، ويعدونهم بجنات السماء . وكان منهم من يلبسون القبعات فوق رؤوسهم ، ويتطاير الشرر من عيونهم الخضراء ، ويرطنون بلسان غريب على أفهامنا ، ولكنه رقيق . لن نستطيع أن نذكر جميع أعدائنا . كل ما نذكره أنهم قد بنوا هذا السور الهائل المنيع حول مدينتنا . تقول عجائزنا المخرفات إنهم قد بنوه منذ مئات السنين . ويقول حكماؤنا ذوو اللحى الطويلة، والرؤوس الصلعاء من أثر الحكمة . إنه موجود على حاله منذ الأزل . ونحن منها حائرون : فتحنا أعيننا فرأينا هذا السور الهائل المنيع يطوق مدينتنا ، من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب ، ويكاد يخنق أنفاسها . ويكاد الحزن يغلبنا فنعتقد أننا سنموت ونتركه وراءنا .

حكاية هذا السور العظيم لا تبرح رؤوسنا ولا شفاهنا . في كل بيت . في كل منتدى . في كل شارع . في كل حي — نجد من يذكر السور وهو خائف ، وأطرافه ترتعد . جدتي قالت لي — أيام أن كانت تروي لي حكاية السندباد في ليالي الشتاء — إن هذا السور قد بناه حاكم عظيم ، كأنه مارد من الجان ، بساعديه الغليظين. وأمي حذرتني — وهي على فراش الموت — من أن أقربه . لكنني مع ذلك بقيت حائراً ، والشك يطلّ من عيني . حرصت على أن أجمع كل خبر . وأن ألتقي بكل من أتوسم فيه المعرفة بنبأ السور العظيم . وكان أن جمعت أنباء طيبة ، وإن كنت أتعجب من اضطرابها ، ومن تناقضها في أكثر الأحيان . فحراسنا الأشداء يقولون إنه يحمي مدينتنا من غارة الأعداء — وهم كثيرون — والفلاحون الأتقياء يؤكدون في لهجة صادقة أنه يصدّ عنا رياح الشمال المسممة التي كانت تهلك فيما مضى محاصيلنا ، وتؤذي الزرع والنبات . أما الحكماء فهم يقولون — وعيونهم لا تفتأ تتأمل الكتب القديمة الصفراء ، وأصابعهم تتخلل لحاهم البيضاء — إن هذا السور يعصمنا من الجهل الذي عم البلاد ، ومن وباء استشرى في سائر الأمم ، وأننا لذلك سنبقى حكماء عاقلين ما بقي لنا هذا البناء العظيم .

هذا السور قد صحب أعمارنا ، وحفظ ذكرياتنا . فنحن نخشى عليه من أن يهدم منه حجر ، أو تفتح فيه ثغرة . أجدادنا من المهندسين قد صبوا فيه عصارة أفكارهم ، وسهروا الليالي الطويلة وهم يعدون رسومه ، ويبدعون تصميمه ، ويقيمون أعمدته وأبهاءه . وشبابنا من البنائين والصناع والعمال قد وضعوا فيه جهد أعمارهم ، وأعصابهم ، ودمائهم . لبثوا عشرات السنين يحفرون ، ويردمون ، ويحملون الطوب والحجارة فوق أكتافهم ، ويتحملون لفحات شمسنا المشبوبة الخالدة . ومات منهم كثيرون ، واختلطت عظامهم بالرماد والجير والأسمنت . أما أطفالنا فقد لعبوا حوله ، ولمسوا أحجاره ، وحملوا في رؤوسهم الصغيرة أعز الذكريات . والعشاق لم ينسوا أن يصحبوا معشوقاتهم إلى جانب السور العظيم ، فاستندوا معهن على جدرانه ، وغازلوهن واعتصروا أجسادهن من الحب ، ورقصوا ، ورجعوا في آخر الليل وقد أضناهم العناق والضم والتقبيل . أما عجائزنا من الشيوخ والنساء فقد كان لهم في جوار السور أولياء صالحون ، وقديسون طيبون ، يزورونهم بين حين وحين ، ويؤدون فروض العبادة في أضرحتهم ، ويلثمون أطراف أكفانهم . ويرجعون الى بيوتهم راضين مستبشرين .

ولكن حدث منذ عهد قريب ما جعلنا نشفق على سورنا العظيم من أن يصيبه أذى . فقد أسفر صباح يوم سار فيه المنادي — وهو رجل أعمى يقوده صبي رث الثياب — في شوارع المدينة وهو يلقي بالنبأ العظيم : « لقد وجدت أمس في جدار السور ثغرة كبيرة . الحراس يبحثون عن اللصوص » . سرى النبأ في المدينة سرى الرعب . من هم هؤلاء اللصوص ؟ من أين جاءوا ؟ كيف واتتهم الجرأة على أن يتسللوا إلى مدينتنا أو يهربوا منها ؟ وسرعان ما تم التدبير . واحتاط حراسنا الأشداء لكل الظروف . ووضع على مسافات متقاربة من السور رجال من الشرطة ، مدججون بالسلاح ، عيونهم ساهرة بالليل والنهار . ولم يمض قليل حتى ضبط اللصوص المعتدون . وأمر الحاكم العظيم بأن ينزل بهم أشد العقاب . فسار بهم رجال الشرطة في شوارع المدينة بعد أن حلقت رؤوسهم ، ومزقت ثيابهم ، حفاة عراة إلا من خرقة تسترهم ، أنا قد رأيتهم بعيني . فأنا واحد من شعب هذه المدينة . ومن حقي أن أقف على جانب الشارع لأتفرج على الموكب وهو يمر من أمامي . وشد ما كانت دهشتي إذ عرفت اللصوص الثلاثة . لا ريب أنهم من أهل مدينتنا . يخيل إلي أني

رأيتهم ، وعاملتهم ، وإن كنت لا أذكر تماماً أين كان ذلك . ولقد بلغت بي الشفقة عليهم حداً كبيراً ، فاستغفرت لذنوبهم ، وطلبت لي ولهم الرحمة من الله ، ومن الحاكم . كان موكبهم شيئاً يبعث على الألم حقاً . لابد أن حراسا الأشداء قد ضربوهم على ظهورهم بالسياط حتى سالت منها الدماء في خيوط متعرجة ، حفرت عليها آثاراً عميقة كالمدة .

ولقد بلغني بعد رؤية هذا المشهد بيومين ، أن الحاكم الكبير لم يكتف بهذا الجزاء . طلب أن يوضع اللصوص الثلاثة في السجن . ولما لم نكن في مدينتنا سجون ، فقد أمر فبنيت لهم على عجل زنزانة ضيقة ، منعزلة في قلب الجبل — قيل لي إنها قد كلفت ميزانية الحاكم أموالا طائلة — فلما قيل له إنه لابد للمسجونين من حارس ، صار يدمدم يومين كاملين . فالنفقات لم تكن تخطر على باله . ولقد سمعنا ونحن في المدينة — فقد صار نبأ هؤلاء المساجين أهم ما يشغلنا ويجذب انتباهنا — أن اللصوص الثلاثة قد صافحوا حارسهم في حرارة وهم يدخلون الزنزانة . وأن واحداً منهم راح يؤكد حين أغلقت عليهم الزنزانة أنه هو الذي صنع البوابة الحديدية والقفل الكبير بيديه ، مما سر الحارس وجعله يغرق في الضحك . وكان زميلاه في السجن كذلك في غاية من الانشراح . أما أحدهما فهو فلاح بسيط كان يعيش على قطعة صغيرة من الأرض يزرعها بقليل من القمح والخضروات ويعيش سعيداً مع أبويه العجوزين وأولاده الأربعة . وأما الآخر فكان شاباً صغيراً يشع من عينيه الذكاء والقلق . لم يكد الحارس يغلق عليه باب الزنزانة حتى طلب أوراقاً وقلماً .

هكذا سارت الأمور على خير ما يرام . فالسجناء الثلاثة فرحون مستبشرون لسبب لا ندريه . بل لقد زادت شهيتهم للطعام (حتى طلب أحدهم أن يؤتى له بفخذ خروف محمر ، وثلاثة أرطال من اللحم المشوي ، واقتين من التفاح والكمثرى !) وهم لا يكفون عن الضحك والتهليل حتى كأنهم قد دخلوا حانة أو مشرباً ! ثم إنهم ينامون نوماً هادئاً ، وعلى الاخص ذلك الجلاد الذي لا يكاد يصحو من نومه حتى يطلب الطعام من حارسه ثم يعود إلى النوم في هدوء ..

ولقد سارت أمور المسجونين الثلاثة على النحو التالي : كانوا يزدادون سمنة يوماً بعد يوم . وزادت نتيجة لذلك نفقات إيوائهم على الحاكم — حتى كان يوم استشاط فيه غضباً وأرسل إلى مدير ديوانه ليقول له وعيناه ترسلان الشرر :

— لابد من الخلاص من هؤلاء الملاعين ..

— وكيف يا مولاي ؟

— إقطعوا رقابهم !

— لا نستطيع يا مولاي .

— وماذا يمنعكم ؟

— نخاف على سور المدينة .

— وما شأن السور في هذا ؟

— ستزداد فيه الثغرات . وسيهجم تعبك الأمين عليه فيهدم أحجاره .

— إذن فافتحوا أبواب السجن .

— ومتى كانت السجون مفتوحة الأبواب ؟!

— إفعلوا أي شيء . فقد ضاقت نفسي بهذه التكاليف .

وأذعن مدير الديوان لهذا الأمر . فأمر حارس الزنزانة أن يترك بابها مفتوحاً . ولكن هذه الوسيلة لم تجد إزاء عنادهم . فقد كانوا يخرجون للطعام أو للنزهة ثم يعودون إلى السجن فيغلقونه عليهم في إحكام . وسارت الأمور على هذا النحو اياماً . المساجين ينفذون العقوبة المفروضة عليهم بأمانة وإخلاص ، والحارس يستولي عليه الملل ويغط في نوم لا يفيق منه .

وبلغت أنباء الثلاثة أسماع أهل المدينة . إنهم يستطيعون — بمجرد فتح ثغرة في السور العظيم — أن ينعموا بسجن هادئ مريح ، وأن يناموا ملء جفونهم ، ويستسلموا لأحلام صافية . وكان أن تسلل الكثيرون إلى السور في ظلمة الليل — وكل من فتح ثغرة أو نقل حجراً عن موضعه أسرع إليه الحارس فقبض عليه وأسلمه لرجال الأمن . وتعددت هذه الحوادث حتى ألفت آذاننا صوت المنادي العجوز وهو يطوف بالطرقات ليعلن نبأ القبض على اللصوص. ووجد العاطلون من أهل المدينة عملا مربحاً في بناء السجون الجديدة المحكمة . وأطمعت هذه الثروة المفاجئة الكثيرين فتركوا أعمالهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم وشاركوا في البناء الجديد في همة ونشاط . ولكن الأمر الذي لم يكن يتوقعه ، أحدأن عدداً من الصبية والنساء قد تسللوا ذات ليلة إلى السور العظيم — في غفلة من الحراس النائمين — فقلبوا أحجاراً كثيرة عن مواضعها ، وفتحوا فيه ثغرات لا يقوى عليها إلا الرجال . وكان أهل المدينة كراماً مع هؤلاء المذنبين . أثارتهم المروءة والوفاء ، وهزهم الشحوب البادي على وجوههم ، فدلوا رجال الأمن عليهم .

لم يكن بد إزاء هذه الأحداث من أن تؤلف المحاكم ، وأن يجعل لها قضاة مهيبو الطلعة ، طوال اللحى ، يتلفعون في مسوح سوداء فضفاضة كمسوح الرهبان . وكثر عدد هذه المحاكم فيما بعد حتى دخلت كل حي ، ومن لا يُحاكم يتفرج . وتوافد الفلاحون الأتقياء من القرى البعيدة ليشهدوها ، ويروا المدينة التي تقيدها سلاسل من الحجارة . أما الحاكم فلم يكن يفهم مما يدور حوله شيئاً كان يعجب لأهل المدينة الذين يسيرون إلى السجون بمحض اختيارهم . وكان أكثر ما يزيده غيظاً أن يسمع أناشيدهم حين تسوقهم الشرطة

صدر عن

دار بيروت للطباعة والنشر — ببيروت

	ق.ل
١ — فن المقالة تأليف : الدكتور محمد يوسف نجم	٢٠٠
٢ — فاغنر ترجمة : الدكتور فؤاد ايوب	٢٠٠
٣ — الصبي الاعرج تأليف : توفيق يوسف عواد	٢٥٠
٤ — معنى الثورة » : الدكتور جورج حنا	١٥٠
٥ — معجم البلدان الجزء : الحادي عشر والثاني عشر	

قيد الطبع

١ — بخاري تأليف : صدر الدين عيني
٢ — قميص الصوف » : توفيق يوسف عواد
٣ — بودلير ترجمة : الدكتور فؤاد ايوب
٤ — شوبنز » : بهيج شعبان

إليها . وكان أشد ما عجب له أن الحراس الذين وضعهم على مسافات متقاربة من السور العظيم قد تفشى بينهم مرض النوم (لقد رآهم بنفسه يتثاءبون .) وراع الحاكم ما سمع وما رأى ، فأسرع يستدعي كبير قضاته . وحين مثل هذا بين يديه ، وانحنى أمامه حتى كادت جبهته أن تلمس الأرض صاح فيه : أرأيت ؟! أرأيت ؟!

– أنا أيضاً لا أكاد أصدق يا مولاي .

– وماذا يريدون ؟

– السجن .

– أيعاقبون أنفسهم بأنفسهم ؟

– ويطلبون المزيد من العقاب !

– المدينة امتلأت بالسجون . ليس بوسعي أن أفعل أكثر من هذا .

– نحن أيضاً قد يئسنا يا مولاي فقد تعطلت وظيفتنا . ولم يعد لأمثالنا من القضاة ضرورة . إن الجميع يتمنون العقاب الذي نفرضه عليهم .

– احكموا عليهم بعقاب أشد !

– الحكم في يدك يا مولاي .

– في يدي ؟!

– نعم .. هناك حكم واحد يريحنا من هذا العذاب .

– تكلم ! تكلم ! هل نسجنهم إلى الأبد !

– لقد جربنا هذا .

– إذن نقطع رقابهم !

– ولا هذا .

– ويحك ! بماذا أحكم إذن ؟

– أحكم عليهم .. بالحرية !

– الحرية ؟! وكيف ؟

– إهدم السور العظيم .

قال كبير القضاة ذلك واحمر وجهه كفتاة عذراء . ثم انحنى حتى كادت جبهته تلمس الأرض . وخرج وهو يتعثر في أطراف ثوبه الفضفاض .

وعاد القاضي من فوره إلى المحكمة . وسارت الأمور سيرها الطبيعي . النساء يلدن . والصغار يكبرون . والعجائز يموتون . والثيران تدور في الطواحين . وأمواج الفلاحين الأتقياء تترى على مدنيتنا من القرى البعيدة . كل شيء يجري على ما يرام .

كان ذلك منذ زمان قديم ، سحيق في القدم . ولم تزل أسوار المدينة كما هي ، عالية ، مرتفعة ، تحجب عنا رياح الشمال ، وتكاد أن تحجب النور .

وما برح أهل مدينتنا يتسللون إليها في ظلمات الليل ؛ يغافلون حراسها ، ويغمون فيها ثغرة جديدة .

أدرك أهل المدينة أن مدينتهم قد باتت وهي سجن كبير . ولم يكن الحاكم يدري أن السجن الصغير يمكن أن يتسع ويتسع حتى يضم كل هذا العدد من الناس .

أما أنا – وإن كنت رجلا مسكيناً من أهل هذه المدينة ، ثيابي رثة ، وقدمي حافية ، وطعامي قليل – فقد فهمت ما يريدون . لمعت هذه الفكرة في رأسي فجأة وعلى غير انتظار : سوف لا يهدأ لهم بال حتى يهدموا السور العظيم ، وينقضوه حجراً بعد حجر .

أنا قد لمحت هذا في عيونهم .

القاهرة **عبد الغفار مكاوي**

الثريات الانيقـــــة

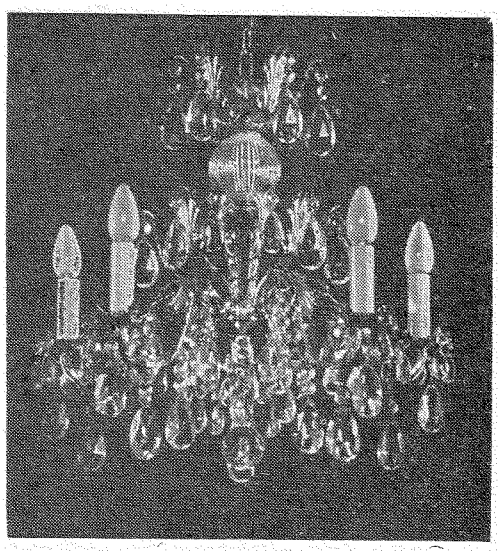

والاواني الجميلة

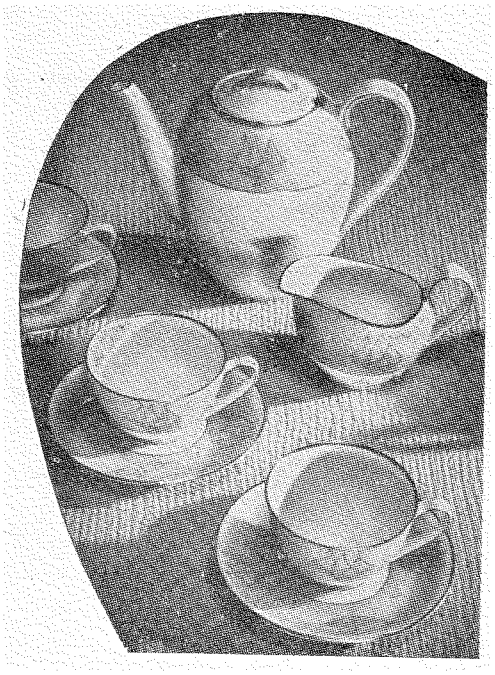

تجدونها في معارض

كمال وشركاه

جانب اوتيل بريستول – بيروت